

قبائل شرق الجزائري: قراءة في بعض العادات والذهنيات حسب الدكتور توماس شو
(THOMAS Shaw) من خلال كتابه (رحلة في أيلة الجزائر)

د/عبد الحميد عمران

جامعة محمد بوضياف-المسيلة-

مقدمة:

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني الكثير من الرحلات الاستكشافية الأوروبية، والتي كانت في أغلبها تحمل نية التحسس على مجتمع يبدو منغلقا عن أوربا التي بدأت تخرج من حالة البؤس الاجتماعي والسياسي خاصة بُعيد الاكتشافات الجغرافية وحالة الانتقال السياسي والاقتصادي الأوربي، وبوادر التنافس الاستعماري.. وكانت منطقة الحوض الجنوبي للمتوسط من أكثر مناطق المنافسة، خاصة الجزائر العثمانية التي سيطرت سفنها لردح من الزمن على الملاحة وفرض هيبتها وقوتها.. مما جعل الدول الأوروبية تقيم علاقات دبلوماسية مع هذه الإمارة العثمانية القوية.. وتستغل تلك العلاقات في عملية استكشاف الأيالة من جميع النواحي.. ولم يقتصر الأمر على اسبانيا وفرنسا والدول الجنوبية، بل أقامت بريطانيا علاقات مع الجزائر وأرسلت خبراءها ومكتشفيها من أجل الاستطلاع على هذا البلد.. ومن هؤلاء الطبيب ورجل الدين والمستكشف والجغرافي "توماس شو" Thomas SHAW¹ والذي جمع

1-توماس شو، ولد في 1692 أو 1694 كيندال KINDAL بإنجلترا وتوفي في 1751 م، هو طبيب ورجل دين ورحالة بريطاني. وتعد رحلاته إلى شمال أفريقيا توثيقا مرجعيا خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. تزود بالثقافة الكلاسيكية، بالإضافة إلى معرفته للعربية والعبرية، إلى جانب اللاتينية واليونانية، وكان توماس شو ممثلا للكنيسة الانجليكانية في 1720م. سافر إلى الجزائر العاصمة وزار العديد من المناطق في أيلة الجزائر طيلة فترة إقامته بما مابين سنتي 1720م و1732 م، وتمكن طيلة ال 12 سنة، التي قضاها في المنطقة من تدوين ملاحظاته حول المجتمع وعلاقاته وجغرافية المنطقة وطبيعتها.. وفهرسة لأنواع الحيوانات والنباتات في المغرب العربي. طُبِعَ الكتاب في طبعات عديدة بعد ترجمته إلى اللغة الفرنسية ومنها الطباعة الحجرية سنة 1743م، حيث توجد منه نسخة بمكتبة أرشيف ولاية قسنطينة، وهي نسخة مزودة بملاحظات هامشية للمؤلف وكذا بعض الخرائط التقريبية. الطبعة الثانية كانت سنة 1753 وتحتوي على بطاقات، ألواح من الحيوانات والنباتات. أما الطبعة الثالثة فكانت سنة 1830م إلا أنها افتقدت ملاحظات الدكتور شو، كما أن المترجم وقع في التباس لتحديد الأماكن ووضع المسافات. تمكن شو من إجراء مسح جيوديسي يومي ورسم خرائط مرتبطة بعمله، واستفاد من إقامته الطويلة في الجزائر العاصمة (1732-1720) في القنصلية البريطانية لزيارة مصر والجزيرة العربية وفلسطين وسوريا وتونس. البيانات الجغرافية ورسم الخرائط الجيولوجية والأثرية، وترتيبها بعناية في أقسام منفصلة لتلبية المتطلبات الجديدة للجمعية الملكية في لندن.

د/عبد الحميد عمران.....قبائل شرق الجزائري: قراءة في بعض العادات والذهنيات حسب الدكتور توماس شو
مشاهداته في كتابه الشهير: "رحلة في أقاليم الجزائر". في هذه الدراسة سأتناول بالعرض ملاحظاته حول
قبائل إقليم بايلك الشرق من حيث العادات والتقاليد والأولياء والذهنيات والعلوم والطب والألبسة
والحرف والبناء والموسيقى....

V O Y A G E S
D E
MONS^R. SHAW, M. D.
DANS PLUSIEURS PROVINCES DE LA
BARBARIE ET DU LEVANT:
C O N T E N A N T
DES OBSERVATIONS GEOGRAPHIQUES, PHY-
SIQUES, PHILOLOGIQUES ET MELEES
SUR LES ROYAUMES
D'ALGER ET DE TUNIS,
S U R
LA SYRIE, L'EGYPTE ET L'ARABIE PETREE.
AVEC DES CARTES ET DES FIGURES
Traduits de l'Anglois.
T O M E P R E M I E R



41° 03'
58'
A LA HATE,
Chez **J E A N N E A U L M E,**
M. D C C X L I I I

نسخة الطبعة المترجمة الأولى سنة 1743م

VOYAGE
DANS
LA RÉGENCE
D'ALGER.
ou
DESCRIPTION

GÉOGRAPHIE, PHYSIQUE, PHILOLOGIQUE, ETC.
DE CET ÉTAT

PAR LE DR. SHAW

Traduit de l'anglais, avec de nombreuses augmentations,
de notes géographiques et autres
par

J. MAC CARTHY

MEMBRE DE LA SOCIÉTÉ GÉOGRAPHIQUE DE PARIS.

Auteur du choix des Voyages modernes, du Dictionnaire universel de
Géographie physique, politique, historique et commerciale, etc., etc.,

AVEC UNE CARTE DES RÉGENCES D'ALGER ET DE TUNIS,
Dressée exprès pour cet ouvrage.

PARIS,
CHEZ MARLIN, ÉDITEUR,
RUE DE SAVOIE, N° 11

1830.

نسخة الطبعة المترجمة الثالثة سنة 1830

إقليم الجزائر:

إقليم الجزائر: يحده شمالا البحر المتوسط، شرقا تونس، جنوبا الصحراء وغربا المغرب. يبلغ عدد سكانه ما بين مليون ونصف مليون وخمسة ملايين نفس. تقطعه جبال الأطلس باتجاهات مختلفة منها الأغواط عمور، قرارا، جرجرة والأوراس.

أهم وديانه الجارية الشلف، واد جديد، سيبوس، الواد الأبيض العجبي، وادي الكبير، وادي السحاب، يسر، (الزيتون)، سيف، المالح، مزفران، ميننا، ميدراو - نحر واسول - سوسليم وهرقول الذي يسقي صحراء الأبحاد.

إيالة الجزائر تنقسم إلى خمسة أقاليم، الجزائر في الشمال، قسنطينة في الشرق، التيطري. والزاب في الجنوب ومعسكر وتلمسان في الغرب.

الحاميات التركية:

تعد بجاية إحدى مدن المملكة، توجد بها حامية من ثلاث سفرات القبائل يأتون إلى المدينة بشكل مستمر مما يؤدي إلى ازدحام كبير خلال أيام السوق ويتعاطون تجارة كبيرة، ويحترفون سك المحارث والمجاريف، والكثير من الآلات الحديدية. وينقلون إلى المدينة كميات كبيرة من الزيت الذي يصدر إلى أوربا وإلى الشرق.

وإلى الشرق توجد جيحل حيث تتمركز أيضا حامية تركية بسفرة واحدة، إلى الشرق من ذلك وإلى القل توجد بايلكات صغيرة ضيقة وخطيرة ومنها أهم قبيلتين هما أولاد عطية وقبيلة بني غرقانة لا يسكنون الأكوخ الصغيرة، ولكن يسكنون أحواف الجبال لرد أي اعتداء محتمل.

في القل توجد حامية بحرية، أما في عنابة فيوجد قصر أو حامية تركية بثلاث سفرات أما في القل حيث توجد الشركة التجارية الفرنسية في إفريقيا¹.

تمت إقامة منازل جميلة بمحاذق رائعة تتلاءم مع صيد للمرجان وبفرقة مشاة لها الكثير من القطع المدفعية، ومكان عسكري.. وصيادو المرجان يتعاطون التجارة من الحريز والجلود

1- كانت تجارة الجلود والأصواف تمتاز بالجودة العالية وتعرف بأصواف قسنطينة وكانت الكمية المصدرة من ميناء عنابة سنويا في القرنين 17 و 18 ما بين 10 آلاف و 12 ألف قنطار و بلغت في الرحاء 16 ألف قنطارا، أما العسل والشمع فكانت تجارته مختكرة من طرف الإيالة، وميناء عنابة يصدر ما بين 300 إلى 400 قنطار من الشمع والعسل سنويا للمزيد ينظر: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، م، و، ك، الجزائر، 1984، ص، ص، 214-215.

والشجع في مدن بونة، سكيكدة والقل، وللعب هذا الامتياز كان يجب على الفرنسيين الدفع للحكومة في الجزائر أو قائد بونة وقادة العرب المجاورين ثلاثين ألف أوقية سنويا. المنطقة الممتدة من سكيكدة إلى عنابة نجد المنطقة الجبلية يسكنها الجبليون أما سهول "مفرق" فإنها تزرع من طرف سكان بونة.

المناطق الممتدة ما بين "مفرق" والغابات مسكونة من طرف البدو وهي قبائل تمارس اللصوبية مثلهم مثل سكان الحدود، ويدفعون الضرائب خلال بعض السنوات إلى التونسيين.

في المنطقة الشمالية لإقليم الشرق توجد للأتراك برج وزمالة من أجل توقيف هجمات الزواوة، ويشكل الزواوة قوة عددية وهي من أغنى قبائل الإقليم ويتوزعون على الكثير من المداشر، ولهم أشهر مقام وهو سيدي حمد بن دريس¹، حيث يؤمه 500 طالب علم، ومن أهم المناطق هنا إمارة كوكو وسلطانها المقيم في أحد أهم القرى: بورنان في أعلى الجبل لقد حاول الأتراك خلال بعض السنوات تأسيس قوة لشكم الزواوة، ولكنهم أرغموا على تركها.

وللزواوة قوة عسكرية من ثلاثة آلاف فارس وألف وخمسة مئة حصان وعدد كبير من المداشر ولهم أفضل الأسلحة النارية ومن أغناهم قبيلة بني عباس ويتحكمون في أهم طريق باتجاه قسنطينة. في جنوب زمورة يوجد مقام سيدي مبارك السمّاتي حيث أقام الأتراك حامية.

لهم يلاحظ بشكل واضح تقديس المرابط سيدي الصبح بن حبيب في الطريق الرابط ما بين سطيف وبجاية من طرف قبائل المنطقة.

أما قبيلة أولاد عبد النور فهي قبيلة عاصفة قوية وتمتلك الكثير من الأراضي المخروثة، وفي منطقة الحضنة توجد حامية تركية من ثلاث سفرات، لكنها لا تتشكل من الصبائية.

1- زاوية سيدي حمد بن دريس في آيت ليرة وهي واحدة من الزوايا الأخرى سيدي بن علي الشريف، سيدي موسى التنبدر، وسيدي عبد الرحمان والتي لها برنامجا تعليميا يقوم على القراءة والكتابة، قراءة القرآن، النحو والتصوف، التوحيد والتصوف، دراسة المذهب المالكي، الحديث والسنة، التفسير، الحساب والجبر، وعلم العروض، يذكر ذلك FFBER و DUMAS فيما جمعه

OTTOMANE, O.P.U, Alger, 1998, p.p.178,179.. Mahfoud KADDACHE: L'ALGERIE durant La période

د/عبد الحميد عمران.....قبائل شرق الجزائري: قراءة في بعض العادات والذهنيات حسب الدكتور توماس شو

قبيلة أخرى تسمى أولاد عبد النور بمنطقة الأوراس، وهي قبيلة كبيرة جزء منها في السهل، وآخر في الجبل وتسكن الحميم، ويرأس هذه القبيلة علي بن قيدون. وترجع قيمة هذه القبيلة إلى قوة عددها.

وفي منطقة باغاي. أقام الأتراك حيمًا متقدمة بجانب نياردي ذات الشحاعة. ويلجئون إلى مرابطيهم من أجل درء الخطر الذي قد يتعرضون له¹.

ومن أهم القبائل الكبرى في شمال قسنطينة أولاد بوسيف وأولاد مسعود وأولاد علي وشبانة وبنو صالح. وهي قبائل زراعية.

وفي شرق قسنطينة توجد قبيلتين متوازيتين هما الحنانشة والنمامشة. وإلى الجنوب من الزاب تأسست زاوية سيدي خالد. وينظر السكان إلى سيدي خالد كنبى من أنبياء الله.

وأولاد جلال قبيلة حربية لها ألف رجل مستعد للحرب² وفي بسكرة عاصمة الزاب توجد حامية تركية لباي قسنطينة والتي أسس بها قصرا صغيرا محاطا بأسلحة مدفعية قليلة.

الضرائب³:

1- لقد كانت إحدى خاصيات عاداتهم: "الروح الوطنية" التي تتحلى بها كل قبيلة وكان المرابط يحظى بطاعة لا يمكن تفسيرها بالرغم من أنهم لا يقبلون الخضوع لأي سلطان. وكل من يرغب في شيء فإنه يقدم القرابين ويتوجه إلى المرابط أملا في تحقيق ما يتمنى. للمزيد ينظر: حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تقدم و تعريب و تحقيق، م، العربي الزبيري، ط 2، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1982، ص، ص، 56، 57.

2- لقد ظلت القيادات المشيخية القائمة على وحدات محلية ذات روابط إثنية، تقليدية، تركيبة هلالية متأصلة، ممثلة للشعب وأقل استبدادية من الطغيان المتأمن من الجنود الأتراك، ولذلك فإن السلطة التركية لم تستطع الانقلاب على المشيخات، بل وضعتها كتوازن للسلطة المحلية، إذ أن التركيبة الهلالية يمكنها أن تحدث تغييرا للمشيخة، وأعجزت النظام التركي ومكنته، فانزاح إلى تأسيس دول المدينة ذات النظام السياسي، الاقتصادي المشترك. واستمد بايات قسنطينة قوتهم بربط علاقات مباشرة مع زعماء القبائل.

-Abdallah LAROU: L'histoire du Maghreb, Tome II, édit français MASPÉRO, Paris, 1976, p.p. 33,34.

لذلك انتهج الأتراك سياسة المهادنة القائمة على خلق أحلاف محلية تستند إلى نفوذ العائلات الإقطاعية ورجال الدين لكون مصالحهم تتماشى مع مصالح الأتراك: نصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 275.

3- يرى عبد الله العروي بأن الأقلية التركية أقرت الجزائر نتيجة للإستغلال الداخلي والضرائب المتمثلة في ضريبة العشر على المنتجات الفلاحية والزكاة وحقوق التولية للمناصب على كل المستويات والغرامات المفروضة، غير المنتظمة وضريبة الزرمة على سكان الجنوب والقبائل المستقلة، إضافة إلى الجباية الأكثر التزاما وانتظاما. وبسط القوة المصاحبة سنويا والمتمثلة في الحملة.. p. 45. cit. Abdallah LAROU: Op-

إقليم الشرق يقع بين وادي بوبراك وزاين المتماثلين وهو أكبر من الإقليمين - التيطري والغرب - بطول يفوق 230 ميلا وعرضا يفوق المائة ميل.

ضرائب هذا الإقليم كبيرة جدا عن باقي الإقليمين.

وإذا كان باي التيطري لا يقدم إلى خزانة الجزائر سوى اثني عشر ألفا (12000) أوقية، وإذا كان إقليم الغرب لا يقدم سوى أربعين 40 ألفا أو خمسين ألفا فإن إقليم الشرق لم يحمل أبدا أقل من ثمانين ألفا وفي بعض المرات مئة ألف (100000) أوقية سنويا.

المنطقة الممتدة ما بين سطيف وقسنطينة يدفع سكانها الضرائب، ويشكلون مجالا لإكرام الأتراك والخضوع لهم ولكنهم يحسدون حريتهم لأنهم يشكلون قوة ماثلة لقوة الأتراك الذين يجبرون على إرسال مجموعاتهم خلال فصل الصيف لتحصيل الضرائب بحد السيف، أما مدينة ورقلة فتدفع لوحدها ضريبة سنوية تتمثل في أربعين فردا من الرقيق الأسود¹.

البدو والقبائل²:

سكان القبائل يسكنون الجبال والبدو يتمركزون في السهول حيث يعيشون داخل خيم أو بيوت من الشعر وهي تحميهم من حرارة الشمس وتقلبات الجو، وتشكل هذه الخيم ما يسمى دوار، وهي على شكل دائرة، والخيمة ترفع بواسطة ثلاث أعمدة ويعلق السكان فيها السلال والسروج والأسلحة التي تعلق على عمود الخيمة، والذي يدعى بعمود السرير.

ويوجد فراش السجاد أو المطارح أو الحصير. حيث ينامون إلى جانب هذا العمود داخل الخيمة في العادة على سجادة أو حصيرة توضع على الأرض سواء في وسط أو بجانب الخيمة، ويتمثل غطائهم

1- كان الرقيق يجلبون من الهاوسا و بورنو وتومبكتو وينقلون عن طريق قوافل الصحراء و يجلبهم التوارق عن طريق الغزو أو الشراء من الزعماء في السودان عن طريق التبادل و يوجهون إلى مراكز التهذيب والتربية ، إذ من النادر شراء الزنجي القادم مباشرة من السودان، وفي المراكز يتعلمون اللغة العربية ، للمزيد ينظر:

Marcel EMIRIT et autre : La Révolution de 1848 en Algérie , édit. la Rose, Paris, 1949 ,P,31.

2- يرى حمدان بن عثمان خوجة بأن البدو ينقسمون إلى طبقتين أو نوعين متميزين فسلكي السهول هم العرب المقيمين وساكنتوا الجبال هم البرابرة " القبائل.. والذين تختلف لغتهم عن لغة العرب، ويتخذون الجبال حصونا للحماية و يعيشون في بساطة تامة، حمدان خوجة: المرجع السابق، ص: 53.

في الحائلك. وليس لهم لا سرير ولا وسائل، والأشخاص المتزوجون ينزلون داخل خانات مشكلة من ستارات.

أما بالنسبة لسكان القبائل فيسكنون المداشر والتي تتشكل من مجموعة بيوت، كل بيت يحمل اسم قربي. والذي يبني في العادة من الطين والحجارة التي تجلب من المناطق الأثرية المجاورة أو من الأثرية التي تعجن على شكل لبن بعد خلطها بالبن والحشيش وتغطي بأغصان الأشجار ويجفف تحت الشمس، ولا يوجد في القري أكثر من غرفة ومطبخ وغرفة نوم، ويوجد أيضا مكان للأمهار والأحصنة. ويترك أهل القبائل السهول للزراعة وسكان الجبال يعانون من صعوبة الطبيعة القاسية ولكن حياتهم الاستقلالية غير مضطربة.

وهذه القبائل التي تعيش في الجبال لازالت تحافظ على نفس عاداتها القديمة، ومن المحتمل أنها وجدوا قوة في بعدها عن باقي المناطق.

التعليم:

منذ قرون عديدة والمحمديين (المسلمين) يتجاهلون خصوصا الفنون والعلوم.

وخلال إحدى الفترات التاريخية كانوا وحدهم من الشعوب الذين طبقوا بنجاح الدراسة الفلسفية والرياضيات والطب.

لقد تميز الأتراك بطغيانهم وظلمهم الذي عاملوا به السكان لم يسمحوا لهم ولا لغيرهم بالاشتغال بالعلوم. لقد كان الأتراك يتميزون بروح قلقة وعاصفة، والتي ربطت تجارتهم للاعتناء بالغنى، وناجوا في ذلك المسيحيين الذين كانوا يتلقون منهم العناية، وكان الأتراك يصرفون أموالهم في مضاربات تافهة لا تعود عليهم بأية فائدة²¹.

1 - بعد قرن القنصل شارلر Shaler " " وصف التعليم أيضا بأنه من غير المفيد أن نتكلم عن العلوم في الجزائر، لا لأنها لم تكن مجدية فقط، بل كانت محترقة أيضا وهذا الاحتقار مارسه البايك أيضا، إذ لم ينشئ سوى مدرسة أو مدرستين للصبان الأتراك، للمزيد ينظر. Pierre Boyer. La vie quotidien d'Alger, Hachate, Paris ,1963, p,199.

كان الأتراك والمغاربة يرسلون أطفالهم المرضى إلى المدرسة في حدود سن السادسة، للقراءة والكتابة، ولم يكن لهؤلاء الأطفال أوراق كتابة، ولكن ألواح رقيقة مربعة، صغيرة، تميل إلى البياض يمكن محوها بسهولة، ويتقدم الأطفال للمعرفة القرآنية.

وأجرة المعلم تقدر (بإثنين 2) سو خلال الأسبوع للطفل الواحد. وإذا لوحظ بأن للطفل كفاءة خاصة، وتطور في الدراسة فإن أبويه يحملانه بفخر، ويركبونه على حصان مسرّج، يقوده رفاقه في الشوارع، ويحتفلون بنصره بواسطة الهتاف. ويحضر أصدقاء العائلة لتقدم تهانيمهم إلى الأب والأم ثم الطفل الذي أمضى من ثلاث إلى أربع سنوات في المدرسة. وبعد ذلك يحرز على حرفة أو يتطوع في فرقة برتبة ساجكتار أو معلم للجيش الذي يقوم بالتحصيل الضريبي من القبائل أو مكاتب الجمارك، ويكون مجبرا على إجراء الحسابات.

قليل من الناس من يخصصون وقتا للدراسة، ولكنهم لا يقرأون غير القرآن وبعض التفاسير التي تكون مبهمة بالنسبة لهم. وعرف عن هذا الشعب قلة معرفته الجغرافية وبعض المعاهدات غير المتسقة ومعارف بسيطة في التاريخ الحديث.

وكل المؤلفين في هذا البلد يتناولون نجاحات محمد (صلى الله عليه وسلم)، ولم ينسجوا الحكايا الأسطورية¹.

الطب:

يوجد في الجزائر عدد قليل من الأطباء، ويعرف الطبيب عندهم باسم "tibibs" كما يعرفون الرازي وأطباء عرب قدماء، ويقرأ الأطباء كتاب الطبيب الإسباني المترجم (ديوسكوريد "Dioscoride" ويتسلون كثيرا برؤية الألواح التي يحتويها النص.

1- وحسب شارل فإن التعليم كان كعمل خاص، إذ أن النفاة (أوقفوا له الحيوس) من أجل حماية المدرسة، و بمهذ الهبات سمح بحفظ المجلات والمعلمين، ولكن بمقابل ذلك للحفاظ على المفهوم الديني للمعرفة، وبقي التعليم ضيقا، طائفا، والهدف المرجو منه هو أن الأطفال يتعلمون قراءة القرآن للمزيد ينظر: Ibid, p,199.

طبيب الداى يسمى بالإمام "emim" أو رئيس باقي الأطباء الآخرين، يقول " شو" بأن هذا الطبيب سأله إذا كان المسيحيون يعرفون إبيقراط؟ وأخبره أن هذا أول الحكماء الأطباء العرب!! وللإشارة فإن الناس لا يمتنون الطب.

ومن المحتمل أن العرب - هنا - لهم معارف بالعلوم الدقيقة ورثوها عن طريق العادة وهم لأكثر تطورا هنا من الأتراك.

ويستخدم السكان الحمامات للعلاج من الأمراض، وفي أمراض الروماتيزم تتم معالجة المريض بواسطة الكي بجديد ساخن يوضع على المنطقة المريضة، ويتم تكرار هذه العملية مرات عديدة، وفي حال الجراح فإنه يتم سكب الزبدة الخالصة الساخنة على الجرح.

واحد من المرابطين الأكثر شهرة وهو سيدي محمد زروق يعطي وصفة لمعالجة مرض الطاعون، فيقول:

"إن حياة جميع الناس بيد الله، ولأن ساعة كل واحد آتية وهنا تحمي العناية الإلهية مختلف الأشخاص من مرض الطاعون ويؤخذ كل صباح مادام هذا الوباء موجودا الوصفة التالية: قسمين من الزعفران، قسم من عود الندا، قسمين من مشروب حب الریحان، وهي كمية كافية¹.

المساجد²:

1- لقد احتلّت الخرافة بالطب، إذ أن العامة كانت تؤمن بالتداوي بالشرب من بئر معينة أو بتعليق تميمة. أو زيارة ولي، في حين كانت الجراحة شبه معدومة. وشاع بين الناس كلمة طبيب وحكيم، لأنه كان محل احترام وتقدير، وبعضهم كان يركب الأدوية من النباتات المتوفرة، ويستعملون وسائل الكي والحجامة وكانوا يؤمنون بأن الطب مقصور على الأوربيين.

كما وضعوا بعض الوصفات ضد وجع الرأس والحروق والإصابات الجلدية وضعف الأعضاء التناسلية والسموم، وحرارة الشمس. بعض الباشوات والبايات كانوا يجلبون أطباء أوربيين. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من ق10 إلى 14هـ (16- 20 م)، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1980، صص 429-431.

2 - برع البناءون والصناع في بناء المساجد، وأهم ما يميز المسجد الصومعة والمحراب والمنبر والعرضات، وبعض المساجد كانت تفرش بالزراي من النوع الجيد، وبعضها مبني بالرخام والزليج المستورد من الخارج ولاسيما من تونس وإيطاليا. وكانت المساجد تزين في المناسبات الدينية بقناديل الزيت والشموع. للمزيد ينظر: نفسه، ص462.

حسب شو فإن المساجد شيدت بدقة مثل كنائسهم والمسلمون يفرشون البلاط بالحصائر حيث يجلسون يسجدون. وفي كل مسجد يوجد مجال كبير للوعظ.

وفي كل جمعة (يوم التجمع الديني) المفتي أو الإمام يصعد ويشرح بعض الآيات القرآنية، ويحث الناس على التقوى وأفعال الخير، والمسجد يتجه إلى مكة حيث تتجه وجوه المسلمين دوماً.

ويوجد في العادة إلى جانب المسجد كوخ فارغ من أجل الاعتناء بالحضور ويوجد إلى جانب المسجد ساحة مربعة يعلوها جناح سارية، وينفق المسلمون على المفتين والأئمة وعلى الأشخاص المرتبطين بصيانة المسجد من خلال عائدات الأرض أو المنازل الصغيرة أو المساهمات والتي تخصص حسب الحالة لهذا العمل.

وعملية الدفن لأي أحد تتم برفع جثمانه إلى المسجد ساعة الصلاة ظهراً أو عصراً وكل الحاضرين يرافقونه إلى الدفن، ويمشون مرددين آيات من القرآن الكريم يرضون بإرادة الله، ويظهر عليهم الألم والحزن على الميت وخاصة أهله وأصدقائه الذين يتقبلون التعازي بمناسبة الأسى الذي حلَّ بهم.

الألبسة:

إعطاء تفاصيل عن عادات العيش والأعمال المنزلية لمنطقة القبائل وأهم هذه الأعمال تتمثل في صناعة الحايك "Haikes"¹ الاسم الذي يعطى لغطائهم من الكتان. ونسيج شعر الماعز الذي تصنع منه الخيم.

والنساء هن اللواتي يقمن بهذا العمل إنهن يقمن بتوجيه كل خيط وتشبيكه بالأصابع. ويكون اللباس كاملاً بالنسبة للقبائل وللعرب طوال اليوم، ويتخذونه غطاءً في الليل، إنها ألبسة خفيفة، ولكنها ضيقة وهذا الاضطرار لا يكون إلا إذا أرغم الفرد على لباس إضافي.

1-تقوم النساء بصنع اللباس من الصوف في العادة وهو عبارة عن كيس مثقوب في الوسط لإخراج الرأس وثقبان على الجانبين، ويضيف الأغنياء منهم لباساً فوقه وهو البرنوس أما النساء فيلبسن الحائك الذي ينسجهن، والثريات يغطين رؤوسهن بقطعة من الكتان أو بمنديل قطفي، للمزيد ينظر: حمدان بن عثمان خوجة: المصادر السابق، ص، 61.

عادة استعمال الحايك المستخدم باستمرار يشكل غطاءً إذ يحمله النساء والرجال بين القبائل، البرنوس الذي يشكل معظما لهم ينسج في الدواوير والمداشر وبعضهم ينسجه في القرى والمدن مثل الحايك. والبرنوس قطعة واحدة ضيقة عند الكتفين مع قلنسوة لتغطية الرأس وتوضع القلنسوة على الرأس عند القبائل والعرب أثناء المطر والبرد.

الموريون والأتراك وبعض عرب القبائل الغنيّة يضعون أيضا على رؤوسهم قلنسوة صغيرة حمراء والتي تعد من أهم الصناعات في البلد.

العمامة تشكل شريطا طويلا وضيقا من القطن أو الحرير أو الحرير الموصلّي تغلف القلنسوة الحمراء. عادة ترتيب التناريا المرصعة، ليست فقط لمعرفة مختلف العسكريين الكبار، ولكن أيضا لتمييز مختلف الطبقات الاجتماعية من التجار والبرجوازيين العسكريين ويلاحظ أيضا أن حلاقة وزخرفة الرأس تغطي بالعمائم.

بعض الناس يحملون فوق الحائك بدلة أو قميصا ضيقا جدا والذي يسمى جبييلة وهي بالأكمام أو بدون أكمام والبعض يلبس أسفل الجبة بدلة.

إن الحايك أو البرنوس يشكلان حقيقة اللباس خلال هذه الفترة سواء عند العرب أو عند القبائل وكلاهما أيضا يستخدم حزاما من الكتان يربط في خاصرة الفرد.

والعرب والأتراك يضعون الحزام لحمل سكاكينهم أو خناجرهم¹. والمور والأتراك يلبسون أيضا القمصان، على غير العرب الذين لا يلبسون في العادة هذا القميص، إلا عند بعض الدواوير حيث يكون الزوج والزوجة مجبرين على ذلك أثناء حفل الزواج.

1 - يلبس الرجال ذوو الاعتبار إضافة إلى البرنوس ألبسة تحمّية مهذبة مزركشة بالأزهار وحيط الطرف وسرولا مطرزا عريضا إضافة إلى شاش أو شاشية حمراء. وتطرز السراويل بالحرير وحزام واسع لحمل السيف والخنجر وطية لحامل النقود.

أما باقي الجزائريين فلباسهم بسيط يشكل من لباس الصوف، البرنس، و على عكس نساء البادية، فإن نساء المدن كن يهتمن بزينة من اللباس المتنوع ولبس الحائك وحجاب الوجه ويضعن العطور والكحل والحناء و تقويس الحاجبين على شكل علال وفي ذلك رمز للمسلمين ورمز للصفاء والجمال، للمزيد ينظر: وليام سننسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب، غبد القادر زبادة، م. و. ك، الجزائر، 1980، ص ص، 86-90.

قمصان الرجال تكون بأكمام طويلة ومفتوحة بدون ثنية أو معصم، بينما النساء يضعن شفافا (شاش) وشرائط مختلفة الألوان والبدو لا يلبسون السراويل.

في المدن سراويل الفتيات تختلف عن سراويل النساء المتزوجات، النساء المورسكيات يلبسن الحايك، ولكنهن يظهرن للجمهور بدون ستار، وفي فصل الصيف حين يترافقن فإنهن يتخذن بعض الاحتياطات، ولكن إذا تقرب منهن أجني فإنهن يتركنه ينزع هذا الستار والمورسكيات لهن شعور طويلة يربطنها خلف الرأس حيث يشبكهن بشرط، ويزين بقوالب ذهبية وفضية ويضعن الكحل في عيونهن للتزيين.

الموسيقى¹:

يملك السكان الكثير من الآلات الموسيقية، وتعتبر الموسيقى عندهم مثل أي علم، ومن وسائلهم الموسيقية المفضلة بالنسبة للبدو نجد القصة gospah وهي عبارة عن أنبوب مفتوح من الجهتين مع ثلاث إلى أربع ثقوب وتشكل مهارة للموسيقى، تبدأ أغانيهم باستهلال يتناول مجال تاريخي، وكل مقطع شعري يبدأ بقليل من النفخ بواسطة الأرباب "Arabobboh" ثم تأتي القصة التي تصاحبها القصة.

الوسيلة الثانية وهي الطار "Tarr" من الوسائل البدوية في شكل منخل والذي يتشكل من دائرة خشبية رطبة مغطاة بجلد رقيق ويدق عليه بواسطة الأصابع. موسيقى المور-المغاربية- أكثر انسجامية وعزفا وأكثر فنية من الموسيقى البدوية، كما أنها تمارس بوسائل متنوعة فيها الكثير من مجالات المزامير.

وله الم الرباب "Robbab" وهو عبارة عن كمنجة بوترين ويعزفونه بواسطة قوس، أما العود "a-oud" فهو أكبر من الكمان، ويعزف أيضا بواسطة قوس، ثم القيثارات، إضافة إلى الطار البدوي، و يثبتون على حوافه حيط. لا يوجد قانونا للموسيقى ما عدا الأذن وكل القطع التي تعزف تجمع من عشرين إلى ثلاثين شخصا خلال ليلة كاملة، والموسيقى التركية ليست في الواقع حية، ولا منعشة مثل موسيقى السكان، ولكن لها أنماط مثل الموسيقى البدوية ولها وسيلتين أساسيتين هما الكمنجة التي تشبه الرباب والطلبة.

1- توجد ثلاث أنواع من الموسيقى، موسيقى الحضر الأندلسية، وموسيقى البدو، وموسيقى العثمانيين ولكل نوع خصائصه، وتعتبر الموسيقى الحضرية أكثرها تنوعا وتنغما لحيويتها والعزف يقوم على الذاكرة وليس على النوتة. والموسيقى تناسب عقلية السكان ووسائلهم المعيشية، فشكلت بذلك رمزا من رموز كل فرقة بدوية، حضرية، عثمانية. للمزيد ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 457، 458.

توجد الكثير من المعامل في كل من تلمسان وبسكرة والقبائل، وفي مناطق أخرى فالسكان يصنعون بارود البنادق¹، أما الكبريت فالجزء الأكبر يأتيهم من أوربا. إضافة إلى الرصاص والحديد الذي يميل إلى البياض وهو ذو نوعية جيدة. في منطقة القبائل وفي بعض النواحي الجبلية في بجاية السكان يخدمون الأرض ويمارسون حرفة السباكة، وتسبك المعادن² في شكل أعمدة صغيرة لبيعها في أسواق بجاية.

إن المناجم كثيرة في الجزائر في جبال "دوي" وزيكار وفي هذه الأخيرة أكثر ثقلا وغنى وتوجد مناجم للرصاص في جبل الرصاص بالقرب من حمام ليف. وفي وناش ريس وفي بني بوطالب وهي كثيرة إلى درجة التعفن، وتدر غنى كثيرا ومستغلة بشكل جيد. وعملية تكرير الرصاص تتم بوضع فراش من الحطب بالتناوب مع الخام من هذه المادة ثم تشعل النار. وينالون تبعا لذلك ثمانين 80 ليرة عن كل قطار معدني. إضافة إلى مناجم الرصاص هناك مناجم أخرى للفضة والنحاس وتوجد مناجم النحاس في جبل الفرنان على شكل حجارة كبيرة. إن الحكومة التركية لا تعتبر الاستيلاء على مكتشفات السكان من المعادن، لأنها تعتبر ذلك من حقها في ملكية ما تحتويه الأرض.

الهندسة المعمارية:

تعتبر الهندسة المعمارية إحدى أهم الفنون المنتشرة عند الموريين وهي واحدة من الأشياء المرتبطة بقيمة إقامتهم، والمهندسون المعماريون يمنحون مجالا للحرفيين لتجريب مهنهم الحرة، وهناك تماثل كبير بين بناءات المنازل في هذا البلد، إذ إنها تحمل الكتابات المقدسة ويحتفظ البربر مع الشرق بنوع من البناء والذي في عمومه يحمل تغيرا قليلا ويستعمل الأبواب الكبيرة وأجنحة خاصة وبلاط رخامي وساحات

1- يقول: ابن الدين الأغواطي في رحلته بأن السكان يعرفون صناعة البارود، وطريقتهم في ذلك جمع التراب أو ملاط القرى المهدامة و يصب عليه الماء المغلي، و يخلط بالكبريت وفحم شجرة الدفلى وفي الصحراء يوجد منجم عظيم من الرصاص، يأخذ منه العرب كميات لبيعها. وهذا المنجم لا يقع تحت سلطة أي قبيلة، ويسمى جبل الرصاص شرق أولاد نايل. للمزيد ينظر: أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، م، و، ك، الجزائر، 1986، صص 254-255.

2- في جبال قلسية وزواوة و بني عباس ووادي بجاية وبني حنات تصنع الأسلحة النارية و البلاتين، و يعرف السكان طريقة استخراج خامات الحديد ومناجم الرصاص وملح البارود... للمزيد ينظر:- حمدان بن عثمان خوجة، المرجع السابق، صص 66، 67.

محاطة بأسوار عالية وتزين في بعض المرات بنفاثات المياه في الوسط وتوزع أيضا بكثير من التناسب لطبيعة الجو الملتهب في نواحيه وعلى خراج ساكنيه. طرق المدن في عمومها ضيقة وتتصف عليها الكثير من المحلات على الجانبين.

الدخول إلى البيوت الكبرى توجد أولا مقاعد على الجانبين، وهو مكان يستقبل فيه سيد البيت بعض الأشخاص، ثم يوجد فناء مفتوح ثم بلاط من الرخام وبعض الحجارة من نفس الطبيعة، وفي هذا الفناء يمكن أن تجرى الكثير من المناسبات ومنها مناسبات الزواج وفي الداخل يوجد فناء مغطى بالحصائر أو البساط، وهي مكان مناسب لأحاديثهم، وهذا القسم في البيت يسمى بالوسط، ويكون له دور في فصل الصيف حيث يغطي برداء يربط بواسطة حبال على الجدران إذ يحجب لهيب الشمس.

تتصل الغرف ببعضها وبغرفة العائلة خاصة وأن الوالدين يجبرون أبنائهم المتزوجين على السكن معهم في المنازل الجميلة، والغرف تكون مفروشة بالسجاجيد المخملية من القاعدة إلى السقف الذي يملأ بالأشكال الفنية أو الخشب الذي يحمل أشكالا فنية، ومقسم إلى أجنحة كثيرة أو أعمدة تحتوي آيات قرآنية. في بيوت الأغنياء عظمة كبيرة سواء بالنسبة للعمل أو المادة المخملية التي تصطف حول الجدران، في كل بيت توجد مصطبة صغيرة ترتفع من ثلاث إلى أربعة أقدام عن الأرض حيث يوضع السرير، وتحمل هذه المصاطب الكتابات المقدسة.

المصاعد توجد في بعض المرات عند المدخل وأخرى في الساحة إذا كان يوجد طابقين أو ثلاثة حيث ترتفع هذه المصاعد إلى سطح البيت، ولم يلاحظ شو بأن المصاعد توجد في الخارج في جهة الشارع توجد شرفة واحدة ونافذة لا تفتح، أما السطح تمارس فيه أعمال الغسيل وتجفيف الملابس.

أهم أضرحة الأولياء في إقليم الشرق - حسب شو -

ضريح سيدي بوزغري (بجاية)	ضريح بومرزوق أو صوف الجمر (قسنطينة)	ضريح سيدي أحمد بن ادريس (زواوة)
ضريح سيدي امبارك بن السماتي (مجانة)	ضريح سيدي الصح بن حديد	جوامع مقرة بالحضنة.
ضريح سيدي لحسن (الأوراس)	ضريح سيدي ميمون (الأوراس)	ضريح سيدي خالد (الزاب)
ضريح سيدي لزار (الزاب)		

أهم القبائل التي ذكرها شو في إقليم الشرق:

أولاد منصور	أولاد عبد النور	أولاد ابراهيم
سلطة	أولاد العجبي	قرقور
رحمة	أولاد ناب	بني سليم
زمورة	بني يالة	بني ورتلان
ويلان	أولاد عبد المالك	بني بومسعود
بني عمران	بني سلين	بني مروان
الدايمة	أولاد عيسى	أولاد العلمة
ريغة	أولاد تبان	أولاد حديد
أولاد علي بن سبور	أولاد محمد بن سليمان	أولاد صالح
الأصباح	أولاد سيدي احمد بن الحاج	أولاد دراج
بني حمدون	بني عدل	الزواوة
السقينة	أولاد سلطان	أولاد فاطمة
لخضاز	أولاد زيان	أولاد سليم
الخرابشة	أولاد حركات	علي بن قيدون
تاملوكة	أولاد الصح	أولاد بوعزيز
أولاد جلال	سيدي خالد	التمارنة
النمامشة	الحنانشة	بني عباس
بن معاد	بن عيشة	الحراكتة
أولاد عطية	بني مسلم	بني بليت
بني مينة	رزامنة	أولاد فرقانة
بني قربوري	الزنادقة	الحجابطة
		آيت عامر

الخاتمة:

لقد تطلعت الدول الأوروبية إلى الضفة الجنوبية للبحر المتوسط منذ أمد طويل، وكان لسقوط الأندلس وحركة الاسترداد الأوربي وتنامي القرصنة في حوض المتوسط والاكتشافات الجغرافية وأيضا حركة التنوير الأوربي الدافع لفهم واكتشاف هذه المنطقة، خصوصا وأنها قريبة جدا من مجال أوربا التي بدأت

تستفيد من عوامل النهضة، في حين كانت الجزائر التي تقع تحت ولاء الدولة العثمانية تسيطر أمنيا على حركة النقل البحري في البحر المتوسط، مما جعل الدول الأوروبية تقيم العلاقات الدبلوماسية معها وتفتح قنصلياتها في مدينة الجزائر، وكان الصراع قويا بين فرنسا وبريطانيا في الحصول على الامتيازات وإقامة العلاقات التجارية مع الجزائر.. وتمكنت بريطانيا - كما فرنسا- من ارسال مبعوثيها الذين كان أغلبهم يلاحظ الحياة العامة في هذه الأرض ويرسل تقاريره لبلده.. ومن هؤلاء توماس شو الذي كان متعدد التخصص فهو في أصله طبيبا لكنه أيضا رجل دين أنجليكي مسيحي ورحالة ومستكشف.. وسمحت له مدة إقامته في الجزائر اثنتا عشرة سنة من رصد مختلف مظاهر الحياة في الأيالة فرسم جغرافيتها وعلاقات مجتمعتها.. وكان لشرقها نصيبا أكبر في ملاحظاته بحكم المساحة الجغرافية والبنية الاجتماعية والتعدد القبلي.. وحاول شو أن يبين الاستغلال العثماني للإقليم ماديا من خلال الضرائب المتزايدة وتجهيل المجتمع الذي يمارس حياته بطريقة بسيطة ومرات ساذجة.

قائمة المصادر والمراجع:

مصدر الدراسة

- 1-DR. SHAW : VOYAGE DANS LA RÉGENCE D'ALGER.
Traduit par J. MAC CARTHY , PARIS, 1830.
2-Shaw, Thomas :Voyages de M. Shaw, traduits de l'anglais, T,1,
A la HATE. 1743.

مراجع الدراسة

باللغة العربية:

1. أبو القاسم سعدالله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
2. أبو القاسم سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي، (ق16-20م)، الجزء الثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
3. حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تقدم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
4. ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، (العهد العثماني)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

5. ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، (الفترة الحديثة والمعاصرة)، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.

6. وليم سينسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتعليق، عبد القادر زيادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1984.

باللغة الأجنبية:

1. Abdallah Laroui: L'histoire du Maghreb, Tome II, édit, Français Maspero, Paris, 1976.
2. Mahfoud KADDACHE: L' Algérie durant la période OTTOMANE, O.P.U. Alger,1998.
3. Marcel EMERiT: et mélange d'historiens, la Révolution de 1848 en Algérie, édit, la Rose, Paris, 1963.
4. -Pierre Boyer. La vie quotidien d'Alger, Hachate, Paris ,1963, p,199.